الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع

أولا: إميل دوركايم، امتداد للوضعية وبداية للوظيفية.

أ- من كونت إلى دوركايم.

ب- مصادر النظرية السوسيولوجية عند دوركايم.

ب-1- الواقع الاجتماعي.

ب-2- النزعة الفردية.

ب-3- الفكر الاشتراكي.

ب-4- الفلسفة الوضعية وإطارها المحافظ.

ثانيا: بدايات ظهور الاتجاه الوظيفي في بعض العلوم الأخرى.

أ- في البيولوجيا

ب-في علم النفس.

ج- في الانثروبولوجيا.

ثالثا: التعريف بالاتجاه الوظيفي.

أ- معنى الوظيفية.

ب-الجذور التاريخية والفكرية للاتجاهخ الوظيفي.

جـ -أهم الاتجاهات الفرعية للوظيفية.

د- أهم المفاهيم المتداولة في الوظيفية.

هـ- أهم ممثلي الوظيفية.

هـ-1- روبرت ميرتون.

هـ-2- تالكوت بارسونز.

أولا: دوركايم امتداد للوضعية وبداية للوظيفية

أ- من كونت إلى دوركايم:

سبق معنا القول بأن وضعية أوغست كونت أو علم الاجتماع عنده، قد انبثق من خلال التناقضات التي كانت تسود بين مجموعة من المذاهب الفكرية، والتي بدورها كانت انعكاسا لتناقضات على المستوى الاجتماعي بين الطبقات والفئات الاجتماعية، وهذه التناقضات الفكرية والبنائية أذكتها- كما نعلم- الثورتين الفرنسية والصناعية على وجه الخصوص.

ولقد جاءت وضعية "كونت" كمحاولة من أجل تحقيق الإتساق العام Consensus Universalis في المجتمع، وبالتالي القضاء على كل مظاهر الصراع أو التناقض التي تهدد المجتمع بالإنهيار والتفكك، وحاول "دوركايم " من بعده أن يستمر في نفس الإتجاه، ولكن دون أن تتطابق أفكارهما تماما. حيث اعتبرت آراء دوركايم ونظرياته السوسيولوجية – من قبل الكثيرين- كامتداد وتمحيص وتنقيح للفلسفة الوضعية إزاء ظروف بنائية وفكرية أثارت من جديد مشكلة النظام في المجتمع، وهذا ما سنتتبع ملامحه لاحقا.

ب-مصادر النظرية السوسيولوجية عند "دوركايم":

لقد بدأت معالم النظرية السوسيولوجية عند دوركايم ترتسم من خلال معايشته ومحاورته لظروف بنائية وتيارات فكرية، حيث اتخذ منها مواقف إما بالرفض أو التعديل أو التأييد، ومن أهم هذه المصادر ما يلي:

ب-1- الواقع الاجتماعي:

حري بنا أن نذكر، أنه مع بداية دوركايم في الكتابة كان المجتمع الفرنسي خصوصا يتعرض لأزمة خانقة أصابته بسوء التكامل، من جراء هزيمة فرنسا في حربها ضد ألمانيا 1870-1871، وظهرت من جديد مسألة الإتساق العام، التي سبق إليها "كونت" من قبل، والمتمثلة في التساؤل الذي مؤداه: كيف يمكن حماية المجتمع من الانهيار؟

إذن كان اهتمام "دوركايم" منصبا على ضرورة بناء المجتمع، وذلك من خلال إعادة بناء التماسك الأخلاقي فيه، ومن هنا كان تركيزه على النظام العام القائم على التضامن والذي يستمد استقراره من سلطة الضمير الجمعي Collective mind، وهنا وجب التنبيه، أنه حيثما تظهر مشكلة النظام، ويكون حل هذه المشكلة من خلال محاولة إظهار آليات تحقيق المجتمع لتكامله واستقراره، مع تجاوز مظاهر الصراع الكامنة فيه، فإن صاحب هذا الحل يكون محافظا، ومن ثمة فإن دوركايم يمثل الاتجاه المحافظ الذي يعد جانبا هاما من النظرية السوسيولوجية.

مما لا شك فيه أن دوركايم كان يمثل دعامة من مكونات المناخ الثقافي الفرنسي تحديدا والأوروبي على العموم، وكان لكل ذلك أبلغ الأثر في رسم وتحديد منطلقاته النظرية، وهذا ما يؤكده "محمود عودة" بقوله: " لقد كان دوركايم واعيا تماما بالمجتمع الذي يعيش فيه فقد اتجه إلى الاهتمام بالمشاكل الأخلاقية في عصره، واعتقد أن واجبه هو أن يسهم في الإصلاح الأخلاقي لمجتمعه وأمته، وكان عنده ما يقدمه من أجل الإصلاح حسب ما يعتقد، وحسب ما نهى إليه مذهبه النظري مثل الإلغاء التاريخي لنظام الميراث، والقضاء على الجوانب الشاذة لتقسيم العمل وغير ذلك ...ولذلك فعن انحياز دوركايم للواقع الاجتماعي والفكري للبرجوازية ، وبخاصة الصغيرة منها والممثلة في الجمهورية الثالثة، قد حال بينه وبين الوقوف في صف قوى التجديد التي كانت تنمو وتتفتح بالتدريج" (عودة، 1986، 203).

ب-2- النزعة الفردية: منذ البداية كانت معاداة دوركايم للنزعة الفردية واضحة، حين يقرر أن الظواهر الاجتماعية يتعذر تفسيرها في ضوء التحليل النفسي أو الطبيعي، وبذلك فهو يقف في تعارض صريح مع النزعة الفردية، حيث يتساءل عن مدى فاعلية العوامل الفردية في تأسيس الفعل الاجتماعي والتحكم في مساره، بزعمه أن تركيب الجماعة مخالف لتركيب الفرد، كما تختلف العوامل التي تؤثر في الجماعة عن تلك المؤثرة في الفرد، واستنادا إلى ذلك فهو يؤكد على خضوع الإنسان في تفعيله لسلوكه لما يسمى بالبيئة الاجتماعية. فما نهتم به عند دراسة الطبيعة الإنسانية، في رأيه، هو مجموعة من الحقائق تتبع أساسا من أسبقية المجتمع على الفرد، ومن قدرة هذا المجتمع على أن يضع مجموعة الميكنزمات القهرية تعمل على ضبط سلوك الأفراد داخله. كما وتتضح معاداة دوركايم للنزعة الفردية من خلال رفضه لنظرية العقد الاجتماعي المرتبطة بالفكر

النفعي الفردي والتي أكد عليها "هربرت سبنسر H.Spencer" بزعمه أن الفائدة المتبادلة للأطراف الداخلين في التعاقد هي التي تشكل القوة الرابطة التي تحفظ التماسك داخل النسق.

ب-3- الفكر الإشتراكي:

كما رفض النزعة الفردية، كذلك رفض الفكر الإشتراكي بصورة عامة، حيث بدأ اهتمام دوركايم بالإشتراكية منذ عام 1883 وهي نفس الفترة التي بدأ فيها يستعد لكتابة رسالته للدكتوراه عن تقسيم العمل الاجتماعي، ولكن انشغاله بهذا العمل العلمي أحال بينه وبين استمراره في الاهتمام بالإشتراكية، إلى أن عاود الاهتمام بها من جديد بدءا من سنة 1895أين بدأ يلقي محاضراته حول هذا الموضوع، ويذهب كثير من النقاد إلى أن أعمال دوركايم ما هي إلا محاولة لإقامة نموذج للمجتمع يعارض نموذج كارل ماركس K. MARX، وفي هذا الصدد يعتقد زايتلن ZETTLEN أن أغلب أعمال دوركايم جاءت نتيجة تحاوره مع شبح ماركس، فقد حاول منذ البداية أن يبحث عن نوع من الوساطة الفكرية بين نسقيين نظريين قائمين وهما الوضعية والماركسية، وذلك من خلال تفسير منبعها المشترك، أي سان سيمون S. SIMON ولكنه فشل في ذلك لأنه كان متحيزا.

فإذا كانت القضايا التي يختلف فيها دوركايم مع ماركس عديدة، فإننا سنحاول الوقوف عند بعضها: فبالنسبة للمسألة الاجتماعية نجدها عند ماركس ذات طابع طبقي، تتمثل في استغلال طبقة لأخرى، وذلك عن طريق احتكارها غير المشروع لأدوات الإنتاج ، فهي بهذا الطرح تتعلق بالقوة أو المال أو الجوانب الاقتصادية الأخرى، في حين يرفض دوركايم الطابع الطبقي التناقضي ، ويؤكد على دور الوسائل الأخلاقية MORAL AGENTS، بمعنى أن الحل يكون بإعادة النظر في النواحي المعيارية، عكس ماركس الذي يؤكد على النواحي الاقتصادية.

كما يعتبر تقسيم العمل من المحاور الخلافية بين الإثنين، ففي حين ينظر إليه ماركس نظرة طبقية تجزيئية يهيء طبقات المجتمع للدخول في صراع ضد بعضها البعض، كما يخلق ظروفا مواتية للإغتراب ALIENATION على مستوى العمل والعمال، نجد دوركايم يعتبره طبيعيا، فالمجتمع كالكائن العضوي يضم خلايا متخصصة تؤدي كل منها وظيفة محددة من أجل استمرارية الحياة ، ومن ثمة المحافظة على التماسك والتضامن الاجتماعيين ، وقد يحدث أن يؤدي تقسيم العمل إلى

بعض المعاناة أو الصراع ، إذ لم تؤخذ في الحسبان الاستعدادات الطبيعية للفرد، ومن ثمة – تبعا لدوركايم- فإن هذه الحالة تعتبر غير سوية (مرضية) ينبغي معالجتها.

ومن بين أوجه الخلاف أيضا نذكر طبيعة السلوك الاجتماعي، فإذا كان ماركس يعتبره إراديا وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتغيير الثوري مثلا، فإن دوركايم يراه تلقائيا ومفروضا من الخارج، والفرد في المجتمع ما هو إلا أداة تنفيذ لإرادة أكبر تتمثل في الضمير الجمعي.

واستنادا لكل ما سبق، يتضح أن دوركايم كان على معرفة تامة بالتراث الإشتراكي بما في ذلك الماركسي منه، ولكنه بحكم انتمائه الأكاديمي لدولة البرجوازية بشرائحها المختلفة وولائه للنظام القائم آنئذ، والمتمثل في الجمهورية الفرنسية الثالثة، ظل طيلة حياته معارضا للفكر الإشتراكي.

ب-4- الفلسفة الوضعية وإطارها المحافظ:

إذا كان دوركايم قد رفض الإتجاهين السابقين، فإنه تبنى بشكل صريح الإتجاه الوضعي، وبذلك استمرت الوضعية في أعماله، وهذا لا يعني أنه ردد آراء ممثل الوضعية "كونت" كما هي، وإنما حاول أن ينقي الوضعية ويخلصها من الشوائب الفلسفية والخيالية (اليوتوبية) التي أضفاها عليها "أوغيست كونت A. COMTE" وقد تجلى ذلك في التالي:

إختفت أو ضعفت النزعة التطورية ، وكان الاهتمام بالدراسات المقارنة.

معارضته الواضحة للنزعة التنبؤية الخيالية حيث ذهب دوركايم إلى أن العلم لم يصل إلى مرحلة من النضج بحيث يمكن أن يتنبأ بالمستقبل، فإذا كان كونت قد رفع شعار النظام والتقدم، فإن دوركايم لم يول أهمية للتقدم، وجاء تركيزه على النظام، وبهذا يكون دوركايم قد أبطل البعد النظري التطوري للوضعية وقلب مفهومها على الماضي رأسا على عقب.

أضفى دوركايم طابع العلمانية على العلم، فإذا كان كونت قد ربط علم الاجتماع بالدين إلى درجة أنه اعتبره ديانة جديدة للإنسانية، فإن دوركايم عالج الدين كظاهرة إجتماعية مثل باقي ظواهر المجتمع.

نحا دوركايم بالوضعية منحى علميا، فبذل قصارى جهده لتحديد موضوع علم الاجتماع ومنهجه، وقد دفعت نزعته العلمية هذه، البعض إلى القول بأن العامل الحاسم في تميز علم الاجتماع

الدوركايمي على ما سبقه وكل من عاصره، هو أنه فُهم على أنه منهج أولا وقبل كل شيء، منهج لاستخلاص الوقائع الاجتماعية من تنوع الظواهر الدائم، من ذلك مثلا خصائص الظاهرة الاجتماعية: خارجية، جبرية، تلقائية ومستقلة.

لكن، وبالرغم من التعديلات التي قدمها، فقد استمرت الوضعية في أعماله، وذلك بتأكيده على قضية أساسية شغلته منذ البداية وهي: كيف يكون المجتمع ممكنا؟ وفي كلمة واحدة يمكن حصر إجابته في كلمة **النظام ORDER؛ إذ أن كل نظريات دوركايم**تسعى لأن توضح مظاهر تحقيق النظام، والبحث عن أنماط جديدة من التفاعل ومشاعر التضامن داخله، والميكنزمات التي تفرض النظام عندما تتحقق أعلى درجة من التضامن داخل المجتمع، والمقصود هنا هو التضامن العضوي. (الرجوع إلى علي ليلة 434-440).

وفي هذا المجال يشترك مع أوغست كونت وباقي علماء الاجتماع الوضعيين المحافظين في منطلقهم الفلسفي المثالي الذي يقيمون عليه نظرياتهم، وذلك باعتبار الفكر أساس كل أشكال الحياة الاجتماعية، وعليه فقد رأي أن المجتمع يقوم أساسا على أفكار جمعية والتي تسمى بالظواهر الاجتماعية، وهي الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع، مثل القانون، والعادات، التقاليد، والأخلاق ...الخ.

وهذه الظواهر تمارس قهرا على الفرد لأن لها وجود خارجي مستقل عنه، كما أن المجتمع يتميز بنوع من التماسك الاجتماعي وهي مجموعة من المعتقدات والمشاعر المشتركة بين أفراد المجتمع وتشكل مع بعضها نسقا متكاملا. وقد صنف دوركايم بناء على ذلك المجتمعات إلى شكلين حسب التماسك الاجتماعي.

أولا: مجتمع يسوده التماسك الآلي (الميكانيكي) MECHANICAL SOLIDARITY، ويتصف بظهور العقل الجمعي فيه، ولا يوجد تمايز في وظائف الناس حيث يرتبط الأفراد فيه بالصداقة والجوار والقرابة على أساس العرف الذي يقابل بجزاءات رادعة عند الخروج على عذا العرف، ويسود التماسك الآلي المجتمع البدائي أو المتخلف.

ثانيا: مجتمع يسوده التماسك العضوي ORGANIC SOLIDARITY ويظهر فيه التخصص وتقسيم العمل والاعتماد المتبادل، كما يعم القانون الذي يحافظ على النظام الاجتماعي. وهذا النظام من التماسك العضوي يسود المجتمع المعقد أو الحديث.

وسنعرض في الجدول الموالي لأهم خصائص المجتمعين:

خصائص المجتمع التقليدي (الميكانيكي)	خصائص المجتمع المعقد (العضوي)
التضامن الآلي	التضامن عضوي
الجماعات مستقلة عن بعضها ومتشابهة فيما بينها ومتمسكة بالقيم والمعتقدات التقليدية، وهذا التشابه لا يعني أنها تعتمد على بعضها بشدة وإنما كل مجموعة مكتفية ذاتيا؛ لذلك يطلق عليه أحيانا اسم المجتمع المجزأ Socity Segmental	وجود مؤسسات متخصصة تحتاج كل منها للأخرى وذلك لوجود تماسك يعرف بالتماسك العضوي كما هو الحال بالنسبة لخلايا الجسم وأعضائه، وهذا ما يفسر الاعتماد المتبادل للأجزاء.
الفرد يتحرك مباشرة في المجتمع دون وساطة.	اعتماد الفرد على المجتمع، لأنه يعتمد على الأجزاء التي يتركب منها المجتمع
المجتمع عبارة عن كلية منظمة بدرجة متفاوته، وتتكون هذه الكلية من المعتقدات والمشاعر بين أعضاء كل الجماعة.	المجتمع نظام لمختلف الوظائف الخاصة (المتعددة والمعقدة) التي تحدد وحدة علاقاته.
الامتثال الصارم للضمير الجمعي، وسيادة القانون الردعي (قانون جزائي)	امتلاك الفرد حرية الفعل داخل الإطار العام للقيود الأخلاقية مع خفوت الضمير الجمعي، وسيادة القانون التعاقدي (قانون مدني).
يمتاز المجتمع بالقوة في حالة ما إذا كانت الأفكار والاتجاهات عامة ومنتشرة بين كل أعضائه بشكل قوي.	عمليات عكسية، حيث أن قوة المجتمع تكمن في اختلاف أعضائه الذين يتولى كل واحد منهم دورا محددا.
المكانة موروثة حيث تقوم على انتماءات الفرد ونسبه.	المكانة مكتسبة ترجع للوظيفة التي يمارسها الشخص.

التجانس والتشابه(المثالية/الآلية).	التنوع الثقافي(التساند المتبادل/التعاون العضوي).

واستنادا الى خصائص المجتمع المتضامن عضويا تكون أعمال دوركايم قد أثرت بصورة أساسية في التمهيد للمدرسة الوظيفية، في نفس الوقت الذي اعتبرت فيه استمرارا للوضعية. وذلك بتأكيده على أهمية التساند الوظيفي بين النظم الاجتماعية واستقلال هذه الأخيرة عن عواطف واتجاهات الأفراد الشخصية (التلقائية، الخارجية، الجبرية، الشيئية ...الخ). كما يتضح ذلك أيضا في استخدامه لفكرة المماثلة لإيضاح وظائف النظم الاجتماعية، فوظيفة النظام القانوني في المجتمع مثلا تاثل عند دوركايم وظيفة الجهاز العصبي بالنسبة للكائن الحي.

والملاحظ أن دوركايم في استخدامه **لكلمة الوظيفة** يكون قد قصد بها معنيين مختلفين: يشير المعنى الأول إلى وجود نسبة من الحركات الحيوية، وهي بالنسبة للكائن الحي تلك الحركات الضرورية لحياته؛ أما المعنى الثاني للوظيفة عند دوركايم فهو الذي يعبر به عن العلاقة التي تربط بين تلك الحركات الحيوية وبين حاجات الكائن العضوي، كما نتكلم مثلا عن وظيفة الهضم أو وظيفة التنفس. ويميل دوركايم أكثر إلى الأخد بالمعنى الثاني للوظيفة.

عموما يمكن تلخيص فكر دوركايم الوظيفي في النقاط التالية:

1- يتسم تصوره للمجتمع بالطابع المحافظ، وهو تصور يعارض ما تحمله أفكار عصر التنوير، ولكنه استمرار لفكر أوغست كونت؛
2- اعتماد الفرد سيكولوجيا وأخلاقيا على المجتمع، إذ لا يستطيع إشباع إحتياجاته بنفسه وهو خاضع تماما للقوانين الاجتماعية؛
3- يتضح تأثره بالأنثروبولوجيا الإنجليزية وذلك من خلال اعتماده في تأسيس نظريته حول الدين والمجتمع التضامن الآلي على قراءاته لأعمال الأنثروبولوجيين الإنجليز(علي ليلة، 1983، 422).

4- للقيم الروحية والدينية دور هام في المجتمع، ولذلك فإن الجريمة الكبرى التي اقترفتها الثورة الفرنسية في رأيه هي هجومها الشرس على الكنيسة ونزعها لسلطاتها. فالدين عند دوركايم يقوم بوظيفة حفظ المقدسات الاجتماعية؛ وهو لا يضع فاصلا بين فكرة الألوهية وبين المجتمع، حيث أن الألوهية في رأيه ليست سوى المجتمع مشخص، وهي التعبير الدقيق عن الروح الجمعي. والمجتمع هو السلطة الأخلاقية العليا التي تفرض علينا سائر القواعد والملزمات " ويؤكد دوركايم أن الدين حقيقة إجتماعية، ويدلل على ذلك بأن الدين لا يصدر إلا عن الجمع ولا يتحقق إلا داخل المجتمعالذي يستمد منه كليته وضرورته. لذلك كان الشعور الديني في ذاته شعورا جمعيا على اعتبار أن الشعور الديني يصدر عن المجتمع (العقل أو الضمير الجمعي) وليس عن الشعور الفردي" (السمالوطي، 1981، 85).

5- تؤدي النظم الاجتماعية المختلفة عند دوركايم كالدين والأسرة والطبقات والدولة وما إلى ذلك من وظائف عضوية في المجتمع. ومثل هذه النظم قد وجدت قبل وجود الأفراد، ولذلم لا يمكن هدم المجتمع القائم وإعادة بناءه من جديد، ولكن على الفرد أن يحترم هذه النظم الاجتماعية ويخضع لها ويمتثل لقوانينها.

كل هذه النقاط يمكن اعتبارها بمثابة ملامح أو بوادر للاتجاه الوظيفي الذي بدأ يشق طريقه منذئذ بثبات. ويبقى أن نشير بالاستناد لما أورده **علي ليلة** في كتابه النظرية الاجتماعية المعاصرة أن دوركايم " قد اعتبر البرنامج الوضعي في دراسته للحقائق الاجتماعية بمنهج يتناولها كأشياء من الخارج، وهي مسألة تتعلق بالمسلك المنهجي لعلم الاجتماع. غير أننا نجده قد انتهى الى الايمان بفكرة ميتافيزيقية هي عقل الجماعة أو العقل الجمعي الذي حاول دوركايم إدراكها إدراكا وضعيا كالأشياء، غير أن الإلهام الأساسي بهذه الفكرة وأصلها التاريخية والفكرية ترجع إلى الفكر المثالي، وهو التأثير الذي شكل ملامح المرحلة الثانية لدوركايم" (علي ليلة، 1983، 421). بناءا على كل هذا يمكننا القول أن فكر دوركايم هو استمرار للوضعية كما أنه بداية للوظيفية ويبدو ذلك من خلال التراث الفكري الذي خلفه، والذي يشكل ما يعرف بالمدرسة السوسيولوجية،هذه الأخيرة التي تطورت عبر المراحل التالية:

– المرحلة الأولى: وهي عبارة عن المرحلة التكوينية الأولى والتي يمثلها كتابه: تقسيم العمل الاجتماعي (1893).

- المرحلة الثانية: والتي تتمثل في تشكيل نسق نظري متناسق، وذلك بالتركيز على الحقائق الأمبريقية، وتبدو من خلال كتابيه: قواعد النهج في علم الاجتماع 1895، والإنتحار 1897.
- المرحلة الثالثة: والتي تعبر عن ملامح إنهيار التصور النظري الوضعي، والتحول نحو المثالية، ويتضح ذلك من خلال كتبه: التصورات الفردية والتصورات الجمعية 1899، التربية الأخلاقية 1902، حتمية الحقيقة الأخلاقية1907، الصور الأولية للحياة الدينية 1912.